الخطاب الشعري

بين

الأصالة و المعاصرة

مفهوم الأصالة والمعاصرة ليس جديدًا على النقد الأدبي ، فقد تحدث فيه كثيرون واستفاضوا ، ولا بأس أن نشير إليه مادمنا في معرض الخطاب الشعري وما يتعلق به لما بينهما من صلة ، خاصة إذا علمنا أن الصلة وثيقة بينهما من منطلق أن الخطاب الشعري وليد عصره ، وابن جيله ، صحيح أن له مكونات ثابتة متعارف عليها ، لكن ظروف العصر ومتطلباته لها كبير الأثر في مضمون الخطاب ومحتواه ، ذلك أن بنية الخطاب كالبناء له دعائم ثابتة : أعمدة وحجارة وسقف وأبواب ونوافذ ولكن تشكيل هذه الدعائم يختلف في الحجم والشكل والطلاء من عصر إلى عصر.

والمتأمل بنية الخطاب الشعري يجد له اختلافًا ملحوظًا على مر العصور.

ففي العصر الجاهلي كان عمود الشعر هو السائد ، وكانت مقاييس النقد تراعيه ، ويضعه النقاد نصب أعينهم وفاضلوا بين الشعراء من منطلقه ، وكان الخروج على عمود الشعر أمرًا مستهجنا في رأى كثير من كبار النقاد آنذاك ، وكانت النظرة جزئية تتمثل في بيت أو بيتين أجاد فيهما شاعر وأخفق آخر واتسمت الرؤية إلى الخطاب الشعري – إن صح هذا التعبير – بما يلي :

- النظرة إلى اللغة ووجه الإجادة فيها وحسن استخدامها .
- النظرة إلى العروض وصناعة الشعر.

- النظرة إلى متانة الأسلوب وجودة المعنى .
- تعميم القول دون تعليل .

هذه النظرة النقدية انعكاس صحيح لما كان عليه الخطاب الشعري .

أما في صدر الإسلام :

حدد الإسلام النظرة إلى الشعر وأحاطها بمقاييس وأطر من الأخلاق والقيم التي دعا إليها ، فكان الهجاء أمرًا مستنكرًا لأنه يمس أعراض الناس : ويثير العداوة والخصومة والبغضاء ، وخلص الخطاب الشعري إلى الدفاع عن القصيدة الإسلامية ، والرد على أعداء الدين والدعوة إلى نشر الفضيلة ، ومن ثم اتسم النقد بمراعاة ما يلي :

- الصدق وعدم المبالغة .
- اتخاذ الأخلاق والقيم الحميدة أساسًا في تقييم الشعر وتفضيله .
- الموازنة – أحيانا – بين الشعراء ، والاستناد إلي الأخلاق في الأحكام النقدية .

لذلك أخذ الشعراء على عاتقتهم ما دعا إليه الإسلام ، فكانت لغة الخطاب الشعري تسير في فلك الأخلاق والقيم ، وابتعدوا تمامًا عن الهجاء وعدوه جرما كبيرًا .

- وفي العصر العباسي ، ومع اتساع الدولة ، ورقيها وما صاحب ذلك مت اختلاط وتفاعل مع الحضارات والثقافات الأخرى انتقل الشعر والنقد انتقالة كبيرة تمثلت في :

- إبداء الرأي الصريح في شعراء العصر .

- ظهور الرأي المعلل والمدعم بالحجة والدليل، وتمثل ذلك في الموازنة بين الشعراء.

- إبراز مواضع القوة أو الضعف لدى شعراء العصر .

- ظهور المؤلفات النقدية ، والكتابة الخالصة في أمور النقد وتناول قضاياه : كقضية اللفظ والمعنى ، والسرقات ، والانتحال ، والصنعة والموهبة وغيرها من الموضوعات .

- ثم كان العصر المملوكي والعثماني الذي برز الاتجاه فيه واضحًا نحو الموسوعات والمعاجم ، واقتصار لغة الخطاب الشعري على شعر الإخوانيات والمناسبات ، ضعف الحركة النقدية المتعلقة بالشعر والأدب بوجه عام .

- أما في العصر الحديث ، ومع الاتصال الوثيق بين الثقافات والحضارات المختلفة في الشرق والغرب ، وظهور المذاهب والاتجاهات الأدبية ومدارس الشعر المختلفة ، فقد اتسعت دائرة النقد ، ومن قبلها تنوعت لغة الخطاب الشعري وبدا الاختلاف ملموسًا بين طوائف الشعراء .

فقد اتجه الكلاسيكيون إلى التراث وولوا وجوهم شطره وأكدوا على جانب جودة اللفظ والأسلوب والموسيقا وتقليد القدماء .

وعلى الطرف الآخر رفدت الثقافة الأجنبية شعراء جماعة الديوان برفد جديد تمثل في الوحدة العضوية ، والعناية بجانب الفكرة ، ومواكبة ظروف العصر ومستجداته ، والخروج عن الإطار المتمثل في تقليد القدماء ، وكان كتاب " الديوان " تعبيرًا عن آرائهم وبداية للمعركة الضارية التي دارت رحاها بين أصحاب هذا الاتجاه التجديدي الذهني وأولئك الشعراء الإحيائيين . والمتمثل في هجوم كل من العقاد والمازني على أحمد شوقي وحافظ إبراهيم – ثم كان ظهور شعر التفعيلة والمدرسة الجديدة في الشعر نقلة كبيرة في لغة الخطاب الشعري مالت به إلى الرمز واستخدام الأساطير وإيحاءات الألفاظ ، اعتمادًا على تراسل الحواس التي تجعل من المسموع مشمومًا ، والمشموم مرئيًا ، فضلا عما حدث من تغيير في البناء الموسيقي للقصيدة فلم تعد القافية أمرًا ملزمًا ، بل تخلى عنها بعض الشعراء تمامًا في قصائدهم، بل وصل الأمر إلى ظهور ما يسمى (قصيدة النثر) وتفنن الشعراء في تشكيل القصيدة تشكيلات جديدة مستندة إلى الدفقات النفسية والشعورية ، والاستناد إلى الواقع ومعاناة إنسان العصر الحديث ، وما يحيط به من تغيرات ومستجدات .

لقد ثار جدل كبير حول مفهوم المعاصرة ، والمقصود بها ، وطفت على السطح أسئلة كثيرة : - هل ينخرط الشاعر في أحداث عصره وينفصل كل الانفصال عن تراثه ؟ أم يجمع بين الاثنين ؟ وهل هناك حدود واضحة ثابتة للمعاصرة ؟

أخذت هذه القضية – الاصالة والمعاصرة – مساحة كبيرة وتضخمت وصار لكل من المفهومين أنصاره ومؤيدوه .

لنحاول الوقوف على مفهوم المعاصرة ، لقد ذكر الدكتور عز الدين اسماعيل نوعين من العصرية ، كل منهما بعيد عن التصور السليم للعصرية ،حيث يقول : " النمط الأول هو الذي يتمثل فيما نسميه النظرة السطحية لمعنى المعاصرة ، حيث نجد الشاعر يتحدث عن مبتكرات عصره ومخترعاته ظنًا منه أنه يمثل عصره ويشارك فيه ، والحقيقة أنه بذلك إنما يعيش على هامشه ، ويمثل هذه النمطية دعوة أبي نواس للتجديد ، وذلك بترك المقدمة الطللية والتحدث عن حانات العصر ، وكذلك دعوة أحمد شوقي للتجديد في مطلع العصر الحديث بوصفه للمخترعات الحديثة ، كالطيارة والغواصة . . إلخ والنمط الثاني يتمثل في الدعوة المغالية التي تدعو إلى العصرية المطلقة والتي توشك أن تنفصل نهائيا عن التراث [1] والحقيقة كما يقول الدكتور سعد محمد زياد : " جميع الشعراء الذين يعيشون بيننا عصريون لسبب بسيط هو أنهم أبناء هذا العصر " ويقول : " ولكننا نرى – كما يرى غيرنا – أنه ليس بالضرورة دائمًا أن يكون الجديد عصريًا إلا في ظروف بعينها ، فلو تناولنا الشعر كجنس من أجناس الأدب ليكون أنموذجًا لحركة التجديد المعاصرة ، فقد

١- الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، د / عز الدين اسماعيل .

يكون جديدًا في شكله ، وإن تغلغل فيه نبض القديم ، وروحه وقد يتصادف – وهذا كثير – أن يكون الشعر في تجربته الجديدة أعنى الشعر الحر أو ما يعرف بشعر التفعيلة مجرد احتذاء وتقليد للنماذج الجيدة والأصيلة لا يتجاوز الشكل أو الظاهرة بينما يخلو في فنياته الخاصة من التجديد " [1] و يقول د / عز الدين مدعمًا وجهة نظره " ليس المجدد في الشعر إذن هو من عرف الطيارة والصاروخ وكتب عنهما ، فهذه في الحقيقة محاولة عصرية ساذجة فالشاعر قد يكون مجددًا حتى عندما يتحدث عن الناقة والجمل ، فليس المهم بالنسبة للتجديد هو ملاحظة شواهد العصر ولكن المهم هو فهم روح العصر " [2] ولسنا هنا في مجال الانحياز إلى أحد المفهومين : المعاصرة أو الأصاله ولكن المطلوب هو أن يواكب الإنسان عصره ويعيش ظروفه وقضاياه ، ويحافظ في الوقت نفسه على أصالته وتراثه ، يزاوج بين الحاضر والماضي ، لأن الانخراط في المعاصرة ونسيان الماضي والتراث وتركه شطط وجور لأن في التراث قيمًا ، ومعارف وفيه ما يصلح حياة الإنسان ويرشده ويهديه لأنه خلاصة تجارب ، وعصارة عقول واعية ، ومجهود حكماء حرصوا على خدمة ما يأتي بعدهم من أجيال ، فليس من العدل ترك مثل هذه الكنوز الثمينة ، قد يكون في هذا التراث ما يمكن الاستغناء عنه لعدم جدواه فلا ضير أن نتركه ، لكن لا ندع الصحيح والجيد منه ولا نفرط فيه بل نأخذه ونضيف إليه " لقد عودنا تاريخ الأدب بعامة على ما نسميه " المعركة بين الجديد والقديم " حتى أصبح هذا التصور تقليديا ، وقد ارتبط بهذا التصور بطريقة تلقائية تصور آخر هو أن كل تجربة جديدة إنما تحمل نوعًا من

١- الخطاب الشعري بين المعاصرة والتراث ، د / سعد محمد زياد .
٢- الشعر العربي المعاصر ، د/ عز الدين اسماعيل

العداء للقديم المتوارث أو المستقر "[1] إذ ينبغي ألا نقف موقف العداء من تراثنا القديم ، لمجرد أنه قديم ، ومن يفعل ذلك فقد جاوز القصد " لأن المغايرة لا تعنى المعاداة فإذا كانت التجربة الجديدة تختلف في منحاها الجمالي – شكلاً وموضوعًا – عن منحى الشعر القديم فينبغي ألا نسرع فنستخلص من هذا أن أصحاب هذه التجربة يعادون الشعر القديم ؛ فقد كان هذا وليدًا شرعيًا لكل ما سبقه من الاتجاهات "[2] لقد نسي المختصمون حول التراث والمعاصرة أن " التواؤم بين المفهومين أمر ضروري يفرضه التطور والحكمة التي تمر فيه مسيرة الأجيال المتتابعة فلا يصح أن نتوقع ونفضل ما يدور حولنا من تطور وتقدم ، كما لا ينبغي أن نغمض أعيننا ونصم أذاننا عن موروثاتنا التي كانت ولا شك مصدر عزنا وعطائنا " .[3]

صحيح أن الخطاب الشعري تمرد على الأشكال القديمة للشعر وقوالبه وقوافيه ، ولكن وجود الخطاب الشعري بصورته الجديدة لم يلغ التراث ، كما يظن البعض ، بل هو امتداد له واستمرارية لتجارب كثيرة عبر عصور الأدب ، حتى وصلت إلينا ، وبدت في هذه الصورة الجديدة .

١- الشعر العربي المعاصر ، د / عز الدين اسماعيل .
٢- نفسه .
٣- الخطاب الشعري بين المعاصرة والتراث ، د / سعد محمد زياد .